

حوّل مجموعة « رحيل المرافيء القديمة »

غادة السمان وجراح حزيران ..

بقلم عايدة طرحة ادرسي

الذين يتحدون وفق هذه الازمان فتطابق نفسياتهم المراحل الثلاث التي تمر بها البطلة : حازم وهو الماضي ، او زمن انخسوع والهزيمة ، والاخرس ، وهو الحاضر ، او زمن التخدير والنسيان والتهمرد، وفواز، او الماضي السحيق الذي يطفو شبحه عبر انحسار ويحدد المستقبل. هناك شخصيات اخرى نطل ، ولكنها باهتة ، اذا استثنينا الاب، صوت الماضي العربي ، يرف كالصدى ليحدد طريق الخلاص ، والاخ ، رمز الشعب البريء المتدفع ، المخلص والمضلل .

لا بد ، ونحن نشير الى هذا التقسيم للآزمان ، من ان نذكر ان الكتابة لم تعتمد الى هذا التقسيم وفق التسلسل الزمني الممتد من الماضي الى الحاضر فالمستقبل ، وانما استطاعت ، بضربة معلم منتمرس بهذا الفن ، ان تمزج هذه الازمنة وتجعلها متداخلة فيما بينها ، من خلال لحظة نفسية معينة ارتدت فيها ، عبر الذكريات الى ماضيها فحاضرهما .

بطلة هذه القصة مدى ، هي اذن افوى شخصيات القصة واكثرها غنى لما تحمل من رموز تتجسد في المراحل الثلاث التي تمر بها . انها تكشف عن ثقافة المؤلف الفكرية التي اسفلت فنيا استغلالا جيدا . ان مدى ، صاحبة الاوبار الصوتية الجميلة ، الناطقة بالالفاظ الرنانة هي رمز الجعجعة الفارغة ، كما هي رمز آفتاة العربية المحرومة التي تكفيها علاقتها بالرجال لتمديد كل افق في حياتها . وهي ايضا رمز لتلك الامة التي انتهك عرضها فمنحت نفسها لكل الرجال وراحت في غمرة حزنها تتخبط وتنشد ، لا تدري كيف ، النسيان والحذر .

حبيبها في تلك المرحلة من حياتها ينسجم مع استعداداتها النفسية . والعلاقة بينهما علاقة رضى واستسلام . واذا تتبعنا دراسة نفسية مدى وعلاقتها برجالها الثلاثة ، لاحظنا ان المؤلف تغير الناحية البيكولوجية في تصوير ابطالها اهتماما خاصا . ان مدى موظفة ، تحب حازم ، رمز السلطة ، وما تمثله تلك السلطة في ذهن العربي الرجعي : تسلط الحبيب الذكر على انثاه ، تسلط الحاكم على رعيته .

والعلاقة في كلتا الحالتين قائمة على هيمنة القوي على الضعيف . ان حازم لا يرى في مدى اكثر من اداة للتنفيذ ، ساعة العمل ، اي في الساعات التي يرتدي وجهه قناع اللامعرفة بها . فهو المدير ، الوجه الصارم رمز النفاق . اما في الليل ، فيكشف عن حقيقته ، فهو العشيقي يلقي بثقله على الجسد الفني فيغمرها بالجنس على انفسام الدانوب الازرق .

فراحت هذا الشهر مخطوطة القصص التي توفرت مجموعة غادة السمان الجديدة « رحيل المرافيء القديمة » .

ولست ابالغ حين افول ان هذه المجموعة تعبر اعماق تعبير عن جراح حزيران في نفس الانسان العربي الجديد وفي روحه . فاذا أضفنا الى هذه الميزة - المرتبطة بالموضوع - ميزة نضج الوسيلة الفنية للتعبير - وهي المرتبطة بالشكل - وجدنا ان قصص غادة السمان تستحق دراسة مستفيضة حين ننظر في تقييم الادب القصصي العربي الحديث .

غير انني افضل ، فيما يلي ، ان أقصر دراستي على قصة واحدة من قصص هذه المجموعة ، معتبرة اياها نموذجا لقصص غادة السمان قد يغني تحليلها عن تحليل سائر القصص ، موضوعا وشكلا . وهي القصة الاولى في المجموعة : « الدانوب الرمادي » .

وانني ابدأ بتصنيف هذه القصة كواحدة من أجمل القصص « الجزيرانية » واكثرها عمقا وتعبيرا عن المأساة والتغلب عليها وفتح نوافذ للامل والخلاص .

وجمال هذه القصة لا يقوم على الموضوع ذاك . ان الموضوع ما اوف وقد سبق ان تطرق له العديد من كتاب القصة العرب : ذبول مأساة الانسان العربي بعد الخامس من حزيران . وانما يقوم على الطريقة التي تناولت الكتابة بها هذه المأساة . فانتقاء الشخصيات ، وعلاقتهم ، وتحركهم ، والرموز التي يعبرون عنها ، والتلاعب بهم في مراحل متعددة ، في ازمان متداخلة ، عبر امكنة مختلفة ، كل ذلك يعطي القصة نكهة الجدة والفرادة . يضاف الى ذلك متانة البناء القصصي وجمال الاسلوب وناقته وحرارة التعبير والتجسيد .

ولكي نقف على جمال هذه القصة لا بد من ان نشرحها لتفكيك بنائها وتحليل شخصيتها . اول هذه الشخصيات ، مدى ، فتاة عربية موظفة في احدى الاذاعات صوتها الجميل . يدور في فلكتها ثلاثة ابطال ، حازم ، والاخرس ، وفواز ، يرتبط كل واحد بها وفق الازمان والمراحل النفسية التي تمر بها .

ثلاثة ازمان تتصارع في هذه القصة : الماضي ، ويقسم بسدوره الى ماض سحيق ، وقريب ، وآني ، والحاضر الذي يقسم بدوره الى حاضر آني ، وقريب ، وماض ، ثم استشراف لمستقبل يزرع كالرؤيا خلال تطور القصة .

في هذا التلاعب بالآزمان نكتشف براعة المؤلف في تحريك ابطالها

تنتمي الى الحاضر الماضي او الحاضر البعيد ، حتى اكتشفت جورجي ،
فاتخذته عشيقا ، ودخلت مرحلة الحاضر الآتي او العاش .
في هذه المرحلة ، ينتقل اطار القصة المكاني الى فينا ويحل جورجي
مكان حازم .

جورجي رافض اخرس ، علاقة غريبة تفقد معها مدى ، المذبة
السابقة ، فتصفي على القصة جوا متميزا مشحونا بالرمز . على ان
هذه العلاقة نابعة من تطور شخصية مدى ومن طبيعة نفسيته في تلك
المرحلة : ان اول رد فعل للتمرد على تزييف الكلمات هو الرغبة في
الصمت .

مع جورجي ، او زمن التمرد السلمي ، تكتشف مدى نفسها ،
تفقد في اعماقها وفي اعماق الطبيعة ، فترتد الى جذور الانسانية
الاولى ، الى عالم البراءة ، والاصوات المبهمة ، وانعواء في الغابات
تصدرها الكائنات لحاجة بنفسها فتعلو من غير تزييف . مع جورجي
تفقد الكلمة في اعماقها ، وتموت الحاجة اليها . فالوسائل البدائية
الجسدية كافية للتعبير والانسجام . كل ما في هذه الفترة بكر وصادق .
صدق الرياح في الغابات انها تعيش بلا كلمات .

على ان هذا النواء ما يلبث ان يعناد عليه الجسم او تلفظه
النفس لاستحالة الانسجام معه . فلئن كانت البدائية مفوية لدى
جورجي ، واليكارة في الغابات مريحة الى جانبه ، فان مدى ليست
بدائية النفس والتفكير ، وليست بكر الجسد والنفس .

وتسير مدى في طريق اكتشاف ذاتها بذاتها : ان جورجي مخدر
لا يمتاز عن سائر المخدرات التي تفرقتها الا بطرافته ، فما ان يتعد
عنها ، حتى يستيقظ لديها الوعي ، ومع الوعي الشعور بالوحدة والتخلي
والقلق . صحيح انه كان وسيلة للهروب ، الا ان العلاقة بينهما علاقة
مصطنعة ، مزيفة هي ايضا في آخر المطاف . ليس فيها اي تفاهم
يرتفع الى مستوى الانسان ، وليس هناك اي رباط مشترك يجمعهما
اذا استثنينا الجنس . على ان الجنس ، الذي مارسه مع حازم في
الماضي ، كان أشد صنفا مما هو مع جورجي . مع حازم ، كان
استجابة عفوية لرغبة الانثى المحرومة في بادية الامر ، ثم سببلا
للخلاص من الهزيمة فيما بعد . اما الآن ، فالجنس هو للهروب ، للكذب
على نفسها والتحايل على وعيها واسكات صوتها الحقيقي . ان الواقع
يتضح امامها ويتميز ، ومع هذا الوضوح في الرؤية تتعمق المأساة
وتبلغ القمة .

ما طريق الخلاص ؟

الابتعاد عن جورجي . السعي وحيدة في اكتشاف فينا ودانوبها ،
آخر ذكرى لآخر نغم من انغام الماضي . الدانوب الحقيقي ، رمادي
موحل ، كماضيها . ليس فيه زرقة الاحلام وضياؤها . ومرآة الغبطة
والجمال . جورجي واندانوب والماضي عالم خلقه خيالها ، عالم مزيف .
ويسقط جورجي ، ويسقط الدانوب ، كما سقط من قبل الحاجز
الزجاجي لفرقة الاستديو . وتترأى لها الحقيقة كما تراءت لها حقيقة
الجماهير الفضية في المرحلة الاولى ، حقيقة الاصاله في فيينا ، لئن
سقط الدانوب ، فان اجواء فينا ما تزال عامرة بالموسيقى تنتظر عبقريا
جديدا يلتقط ذبذباتها . انها تعي فيينا ، ولشدة وعيها
لها تسقط لتحل محلها دمشق : وتكتشف حقيقة اخرى : جميع
وعياها لها تسقط لتحل محلها دمشق : وتكتشف حقيقة اخرى : جميع
الرحلات التي قامت بها باطلة . باطل هو الجنس ، وباطلة كل محاولة
للهروب ، ان فيينا - دمشق - بيروت غائرة في اعماقها ، لا سبيل
لانتزاعها .

واذ تذكر بيروت ، يسطع وجه فواز كاروية : حول هذه الشخصية
تأرجح مدى كمحور يتجاذبه قطبان هما في الارجح قطب واحد يمتد
كشعاع من النور ينبثق من الماضي ويفمر الحاضر وينطلق الى المستقبل .
يبدو فواز ، كذكرى : كرمز لعالم المثل التي تعمر احلامنا ويقتلنا
الشوق لبلوغها والاتحاد بها لازالة الغش والزيف الذي لحق بصورة

ثم يحدث الشرح . فتزلزل الهزيمة الارض وانفس ، ومن هذا
التصدع ينبثق اولى شرارات الوعي . هنا ، تنهيا مدى للانتقال الى
مرحلة جديدة . ان التطبيق او الكثافة اصبحت مستحيلة . وتكتشف
تفاهة العلاقة بينها وبين حازم ، علاقة السيد باشيائه : فهو يرفض
ان تمرد او ثور او تعي . واذا تنقص تلك العلاقة ، ببدء الوعي ،
تفقد مدى علاقة اخرى جديدة بينها وبين انجهمور المستمع اليها .
فكما كان جسد حازم يشكل حاجزا بينها وبين الوعي ، كذلك كان الحاجز
الزجاجي للاستديو يحجز ضميرها عن مستمعها . وحين حدث الشرح ،
بدا لها حازم بكل ما في نفسه من نذالة واغتصاب . هنا يتوحد
الرمز . هي والارض والشعب . وتسقط الحواجز فاذا الشعب الغاضب
برك من الدماء يغمرها ويطمس رؤية الحروف عن عينيها ، واذا صوته
الهادي يطنى على صوتها ويخنقه ، واذا الرعب يستولي عليها فتصرخ .
وبصرختها يتحدد اول معالم الاحتجاج ، في الطريق الى الثورة .
ماذا كانت نتيجة تلك العلاقة اللاشعورية المفقودة في الظلام بينها
وبين حازم ؟ كانت ثمرة هذه الاحلام الكاذبة حملا في احشائها ،
عارا في جسدها ، كعار الهزيمة في نفسها ، ولا فرق بين العارين .
وتحس مدى بانحصار ، وبالوحدة ، وبالتخلي . لقد فقدت كل شيء .
الاب ، والاخ والتحبيب والعمل . كل هذه العناصر تضافت لتخلق
الحافز الذي دفعها للخروج من تلك المرحلة ، زمن العيب والتفاهة
واللامسؤولية ، زمن الضياع .

وفي غمرة هذا الانغماس النسفي ، تظهر بوارق امل من هنا
وهناك تشد بمدى للارتفاع بها من بؤرة انقذارة تلك . صوت الاب ، او
صوت الماضي العريق الذي يتلخص بالدعوة الى حضارة انسانية
ازدهرت في الماضي وينبغي لها ان تستمر . ذلك الصوت الذي يدعو
مدى الى ان تستعيد صوتها ، اي نقاءها واصالتها . ولقد رسم لها
الاب طريق الخلاص : الكتابة في القديم ، دعا الملاك جبريل النبي العربي
الى القراءة ، فكانت الكلمة اول خطوة في الدعوة الى الخلاص ، وما
هو التاريخ بعيد اليوم نفسه ، فيدعو مدى الى الكتابة . هكذا تبقى
الكلمة ، بالرغم من كل ما لحق بها من تزييف ، قدر ان عربي الذي لا
مفر له منه .

الى جانب صوت الاب ، تبرز شخصية فواز الثائر ، التجسيد
العملي لصوت الاب يدعوها الى الغداء ، فاموت من اجل الارض او من
اجل الكلمة سواء . في كل منهما معنى الاستشهاد . على ان مدى ، لم
تكن مهية بعد نفسيا للانخراط في هذا العمل ، الذي يتطلب ذروة
النضج الانساني . وان كانت متعاطفة بالنسبة لفواز ، كخطوة اولى في
الطريق الطويل . تصوير بالغ الدقة والتفهم تشبه المؤلفه في رسم
شخصية مدى وتطويرها . فلكي تستجيب لنداء فواز ، ينبغي لها ان
تتخلص من الجنين اعمار . واذا تتخلص من كمية الدم والانسجة في
احشائها ، تهض كل ما تختزن من حقد وغضب واحتقار ، وفي خلاصها
من هذا العيب ، يكتمل الوعي لدى مدى وتتضح لها الامور :

الاغتصاب واحد ، لا فرق بين شرف الارض وشرف المرأة . ولقد
تم هذا الاغتصاب بالطريقة نفسها ، الاول تحت ستار الظلمة والجنس ،
والثاني تحت ستار الكذب والتضليل .

ويتمتع الوعي عند مدى بالقدر الذي تحس فيه بالتخلي والوحدة
اذ ذلك تصيح قادرة على الرفض والتمرد والثورة . وتدخل المرحلة
الثانية في مراحل تطورها .

فناة جديدة هي ، تضرب بجميع القيم الماضية ، ولكن فيها من
آثار الماضي التمزق والترح وائمة السقطه الاولى . ان النفس البشرية ،
ليست كصفحة ورقة مقوى ملساء تنزلق عليها المياه من دون ان تترك
اثرا ، ان جرح مدى اعاق مما كانت تتصور . ولقد بدا لها ان لا سبيل
لشفائه الا بالتخدير ، الا بالسفر والغربة والجنس . وعي لوضعها
وسلبية في طريق الرفض والتمرد . تلك كانت سمة هذه المرحلة التي

المثال . انه اتحنين الى الاصاله ، الى ادراك الحقيقة المطلقة ، الحقيقة التي وجدت منذ الازل . صورة فواز ، مزيج انساني رائع ، فيسه ما في الوجه الافلاطوني من اصالة ، وما في الطفولة من براءة وما في الرجولة من تصميم وعناء ، وما لدى الفكر او النبي من سمو وقابلية للفداء .

كيف استطاعت مدى ، ان تعقد صلة مع فواز ؟

في البدء ، في الماضي السحيق ، كانت علاقتهما علاقة صداقة واخوة . زميل اخيها هو ورفيق طفولتها . لعل الكتابة ترمز ، بتلك العلاقة الطفولية ، الى وجود الخير لدى العربي ، تلك البذور الموجودة بالفعل ، وان كانت غافية او انها غفت طويلا ، لعدم توفر المناخ لتنفتحها . على ان هذه البذور ، ما ان يتزلزل باطن الارض المدفونة في اعماقه حتى تتشقق ، فتفوق جنود لها في العمق بينما تتصاعد في الجوى ، شاقة بطن الارض ، نبتة نحيله خضراء تفتح صدرها للرياح والاعاصير والاهوال .

ولقد تعرضت مدى ، تلك النبتة الفتية ، لكثير من العواصف في حياتها فانتهكت وتشردت وتآلت حتى قاربت الجنون . ولولا تلك البذور الضاربة عمقا وتشعبا التي كانت مترعة بالنسغ الحي كلما جفت فيها العروق وتساقطت عنها الاوراق لانهارت واقتلعت .

هذه الجنون ، هي فواز ، تجسيد للصوت الابوي ، قلبه قلب فواز ، عامر بالحب وانحان . في حناياه على مدى قلق وعطف واسى . انه ، بالرغم من تصريحه لها بان صوتها كان سببا في قتل اخيها وزملائه ، لم يحقد عليها . وبالرغم من حياة التشرد التي عاشتها فقد ظل يؤمن بها وبامكانية استرجاعها . « متى تعودين الينا ؟ » كان هذا آخر نداء سمعته منه . وفي هذا النداء يتسرد صدى حب الاب للفتى الضائع والامل بعودته مهما طال الزمن .

وبالفعل ، منذ ان التفت مدى بفواز ، تصدعت علاقتها بحازم . وظلت في فترة التراجع الممتدة بين علاقتها بحازم وتمردا عليه محور تصادم وتصارع بين قطبين ، كان فواز هو المنتصر ولكن بطريقة سلبية . كان انتزاعها من حازم النقطة الاولى التي يمكن تسجيلها في تلك الفترة؟ وشخصية فواز تقيض صراح لشخصية حازم . ومن هذا التضاد انبثقت شرارات الوعي في نفس الفتاة . فبينما يعتمد حازم في علاقته على الجنس والتستر والاحتقار لمدى ، يعتمد فواز على الصداقة معها ومع جماعته ، على الحب الصريح وعلى الاجتماعات العينية بينهما وبين الرفاق وعلى الاحترام المتبادل . ان العلاقة الفردية المنحطة تنهزم امام الحب البريء الجماعي الهادف الى الاعتراف بحق الانسان بالحياة الكريمة ، وتبدو مدى هنا رمزا لاشد بني الانسان مأساة وانتهاكا .

على ان فواز ، لا يريد انقاذ مدى بانتشالها قسرا ، لان هذا العمل يتضمن احتقارا لشخصيتها . انه يدعوها وعليها هي ان تلبى الدعوة حين تنضج وتصبح قادرة ذاتيا على الفداء . ان الكتابة تلمح الى انتماء فواز الى الجماعة التي تعتبر الانطلاق من اديولوجية ثورية واضحة المنطلق ، صريحة الاهداف ، الاساس السليم للثورة . ان الثورة ليست تجميعا للأفراد ، اي افراد ، وانما هي انصهار موحد لشخصيات ناضجة التفكير ، مؤمنة حتى الموت بالهدف .

وإذا تابنا تحليل شخصية فواز نرى انه يتقابل ايضا مع جورجي . ذلك ان جورجي يلتقي مع حازم بطبيعته من حيث انه هو ايضا انتهى بان يكون مخدرا . فبينما يرمز جورجي الى الدعوة للنسيان والضياع ، يبرز فواز نموذجا صحيا للعلاقات الانسانية . انه يؤنب مدى ويحبها ، يعجب بها ويشفق عليها ، يخاف عليها ويكبر جراتها ، تكتب هي ، ويجسد كلماتها رسوما : تفاهم وانسجام حب واحترام ، الطريق الى الاتحاد الحقيقي ، الى الحب الحقيقي ، الى الوحدة .

مع فواز ، تبلغ مدى ذروة النضج ، تصبح قادرة على تفهم كسل

كلمة من رسالته . لقد دفعت ضريبة الوعي : وحدة والاما . انها تفهم كيف سيتروك فواز الرسم الى حين ليدفع بيده العظم ، بطريقة اجدى واسرع . سيحمل البندقية ، لا ليزرع الموت ، بل ليفنس الحياة . مرغم هو على ترك فنه . وكهن مدى يجب ان تستمر في الكتابة ، ان الكتابة بتلك الاشارة تؤكد ان البندقية والبن سلاحان ضروريان للمعركة ، يصبح لكل منهما فسيسته عندما يلبي صاحبهما اتوقيت ابغ سبيد احدهما بالاخر . هذا التميز الدقيق تعيه مدى . وحين تبعثر اشلاء فواز ، تبنى يده ، الافق المشرق الوحيد في حياتها ، لن ذهب ابدا ، يده ، فستبقى يدها ، توأم يده ، ولن يضمحل الصوت ولن يموت .

ان الرمز يتكثف هنا بصورة مذهشة وبعيدة الافوار واندلوات ليكون الهدف الرئيسي لهذه القصة . فمن المفروض منه التأكيد ان الكتابة لا تبقى هنا الفن من اجل الفن . وانما القصة هي نموذج للادب المنظم . انها تمجيد للفداء بشخص فواز ، باعتباره الحقيق المطلقه في عالم التزييف ، وهي تمجيد تنكلمه ورد اعتبار لها ، بعد ان اصبحت اداة هذا التزييف ، وهي صوت التاريخ ، حق هذه الامة في البقاء ، يرد ان لا حياة للعرب ان لم يرافها الموت وهي نواقذ للامل في دنيا لها الياس حتى الجنون .

ان القصة هي هذه الرموز مجتمعة . لكن الميد ، تبدو البطلة الحقيقية : اليد التي فحرت الثورة ، واليد التي ستتابع بالكلمه تفجيرها . هذه هي الحقيقة التي اكتشفها مدى احيرا ، وهنا طريق خلاصها . لا الهروب ، ولا الغربة ولا التخدير الدواء الناجح لمرضها . شفاؤها ، مواجهه الواقع ، تسريحه ، وضع الاصبع على مدمن الداء منه واستئصال العلة منه ، شفاؤها العودة الى ارضها ، ابي اترية التي ارتوت من دماء اخيها ومن روح فواز ، سوف تمنص منها السخ الذي استغرق تكتيفه مئات السنين ، ستنتقله برينا صافيا ليمتصه جيلها وينقله بدوره . وهكذا تستمر تلك الدورة الابدية ، وتنبوت بالرغم من الياس والاننيار . ستبقى تلك الاصابع الخمس ، رفيفها في الدرب الساق الذي لا نهاية له . وسنظل الكلمة ، رمزا لحصاره واساويه العرب .

ذاك هو قرار مدى . اتخذته عن وعي وادراك وتجربة .

قيمة هذه القصة ، بانرغم من الجو الكابوسي الذي يسيطر عليها ، انها ايجابية الهدف ، مفتوحة الافاق . وجماعها يمدن في هذه الطاقة من الفنى والعمق التي حملتها لمدى . انها شخصية تكسف عن خلقية ثقافية ادبية وفنية وسياسية واسعة عرفت الكتابة ان نستغلها فنيا ، ببساطة ، في الظاهر ولكنها عميقة فسي ابعادها وهراميتها وخلفياتها .

هذه الشخصيات ، نحسها تعيش عوالمها ، تتصارع فيما بينها ، وتكشف عن فهم واع وعميق لدى المؤلف لمختلف الدبذبات النفسية ، وتحليل دقيق لتلوازم البشرية وفرة في تتبعها وتصاعدها .

صحيح اننا نجد في شخصية مدى الكثير من ملامح البطل الوجودي في قلقه وتمزقه وتمرده ووعيه وثورته وتحديد لذاته وللعالم ، الا ان ذلك لا يخرج عن حدود التأثر ويكسب مدى عمقا في التفكير والتحليل واتخاذ المواقف . ولا يراود الناقد اي شك في ان مدى عربية الملامح والهجوم والاهداف . وهي قريبة الى ذاتنا الى حد نحس معه انها بعض منا ، وان ما عانته ليس الا انعكاسا لمآساتنا . وهكذا يكسب القصة اهمية وناقية كواحدة من النماذج التي تؤرخ اثر الهزيمة وهولها على صعيد الفرد العربي ، المثقف بنوع خاص . ويحضرنى بهسذه المناسبة وجهان ، عانيا مما عانته مدى ، وكانت الهزيمة سببا من اسباب قيامها : سميرة عزام ورفيف خوري .

هذه هي قيمة القصة من حيث المضمون ، وقيمتها من حيث الشكل لا تقل عن ذلك . صحيح ان التكنيك ليس بالجديد ، فقد استعمله

كثير من كتاب انقصة ، خاصة اتباع طريقه التحليلية او البيكولوجيه واسلوب تداعي الافكار بالذكر عن طريق الحواس ، كالنغم او الرائحة او المشهد او اللمس ، مطروقي منذ بروسست في بحثه عن الزمن الفصاع حتى جويس ، كما ان تداخل الازمان ، نتيجة طبيعية لهذا الاسلوب . ولكن بالرغم من الطريقه التقليديه ، فان البناء يوحى في هذه القصة بانجده . ذلك انه قائم على قد جسد الاحداث ونظور الشخصيات حتى ليحيل ان اي طريقة اخرى كانت سبوء بالفشل لو استعملت لتحليل نفسية مدى .

كما انه ليس في هذا البناء اي تعكك او خلل . فهو ينطلق نالهرم من ارضية الهزيمة ، في نفس فتاة ، هي رمز للامة ، ويتصاعد ، عبر الاحداث والذكريات واللام ليحدد في نقطه النقاء هي قمة هذا الهرم ، ونتيجة حتمية لنك الظروف . حتى الامل ، مبرر في النهاية .

ذلك ان قمة الهرم مشرعة نحو السماء ، لا يحددها اي افسق ، ما دام الهدف لم يدرك بعد . على ان هذه القصة مرتبطة الاوصال بالعادة ، فاي تصدع في اساسها ، كفيل بان يزول البنيان . ولعل هذا التشخيص ، يفسر في نهايه القصة ، ارتياح مدى النفس بالرغم من رؤيتها جسد فواز المزي . ان رد الفعل اساذج الذي كان من الممكن ان يراودنا للوهلة الاولى هو ان نرى مدى نبكي وتسقط نهائيا في الياس . ولكن نصف مدى كان عكس ذلك : كان تصرفا طبيعيا ومنطقيا لتطورها وظهور بنيان القصة . لقد اخفت برك الدماء المنطقه من عيون الجماهير والتي كانت سببا في ازمته . ذلك ان البنيان رسا على قواعد صحيحة ، قواعد الفداء في الجسد وانصوت والكلمة . كذلك فان طريقه الاسقاط النفسي التي اعتمدت عليها الكاتبة ليست جديدة . فقد لجأ إليها الكتاب من قبل كاصار لافكارهم ومحتوى لحالاتهم النفسية . ولكنها تبدو هنا عضوية بالنسبة للبنيان . ان فيينا انيقة التي ترمم هي صورة عاكسة لنفسيته التي تحاول ان تشفيها بالنسيان . وجو فيينا ، مقامها ، الرأيا التي تعكس الاف الوجوه المتناسرة ، انعكاس تفسيريتها المريضة ، او هي تراها كذلك من خلال ذاتها . والدانوب الموحد ، مثال لسقوط عالم احلامها ، وفوارب التجارة والنقايت ، رمز لاغتيال العالم لها . ان انهيار العالم ، وانهيار الدانوب وانهيارها ، هذا الاسقاط النفسي ، جاء بمثابة ضرورة فنية لرسم الاطار الذي تتحرك فيه ، هذا الاطار الذي يصاعد جو المأساة ويؤزمه حتى الجنون . وحين تستعيد أمهلا ، يعود اندانوب جميلا ازرق كاحلامها التي عزمت ان تحققها .

بالاضافة الى البناء المتين ، تبرز مزايا اخرى تساهم في جمال هذه القصة . فالي جانب احساس الناقد بثقافة الكاتبة الفكرية وهضمها تلك الثقافة ، يحس ايضا بثقافتها الفنية وحسها المرفه بالجمال . انه يلمس « القماس الفني » في اللفظة المنتقاة والجملة الموسيقية والخيال الخصب الموحى ، في الفكرة والصورة واللحن . ان الكلمة هذا الشيء الموات ، يصبح بين يديها مطواعا لتلبس اي حالة نفسية تريد التعبير عنها . فالاسلوب صاحب مزيج حين يريد التعبير عن الغضب والحقد ، فاس يحز كالسكين حين يعبر عن الالم ، يوحى بالفثيان في حالة اتخد والضياح ، رفيق عذب ينساب كوسيقى الدانوب التي تسبح في اجوائها ، شاعري هاديء كحبها الطفواني البريء رصين صارم كمواقف الشجمان .

وزيد في جمال هذا اسلوب تلك اللحظات من التامل الشعاري التي ترفرف على القصة . تلك اللحظات التي تصفي على القصص ذات الطابع التحليلي ذلك الفن الانساني الذي يرفعها الى مستوى الفن الحقيقي . تلك اللحظات نجدها في تصوير فطامة الهزيمة في النفس البشرية ، اية نفس ، كما نجدها في حنين الانسان الى العبودية الى عالم البراءة وانظر في القابات ، كما نجدها في عمق الخيبة امام الدانوب الموحد ، كما نجدها في تأمل طبيعة فيينا ثم في وقفة

استشراف دمشق من جبل فاسيون . ان الجو الشعاري ، المشحون بالناتز ، النابض ، الرعش ، يطغى علينا ، من اول القصة حتى آخرها ان الهزيمة رابضة على صدورنا ، واننا ، كبطلة هذه القصة ، نريد الوصول الى النقطة التي يسطع منها يريق انخلاص .

لقد نمكنت عادة السماء ان يخلق جوا ، ان يتبعث عالما ، فيه الكثير من معالم الواقع المعاش نحسه وتعرف عليه ولكننا لا نتطابق معه ، نجول فيه ، يدشننا بالفه ، بصمنا عليه ، ويصدمنا بفراجه بهذا الخيال الخصب الذي جمع من شتيت الاحداث العادية وحدة في الرؤيا ورفق واقعا الاسن من يؤرته تيشارف الحلم والشعر وامل البقاء .

تبقى بعض المآخذ التي كان من الممكن استدرأها .

ذلك انها لا تتعلق بجوهر القصة من حيث التاليف والرؤية . ان بعض التشبيب والحذف يفي بالفرض . اول هذه المآخذ الاستفراق في التحليل ، ان في العواطف ، او في انشراح اللفظي . وهذا يقضي على عنصر الفموض المستحب . صحيح ان طبيعة انقص البيكولوجية تستدعي التحليل ، ولكن الاغراق فيه يقضي الى الشرح ، ويحرم القارئ متعة الاكتشاف والتأويل . ان القارئ مثلا ، قادر ، ممن خلال تصوير نفسية حازم ان يستنتج انه رمز السلطة . ولم تكن الكاتبة بحاجة الى تأكيد ذلك وترديده في اكثر من موضع . كما انه قادر على تفهم انقراية في علاقة مدى بجورجي الاخرس . ولم تكن بحاجة ايضا الى تبرير تلك العلاقة وشرح اسبابها . ان الابطال يعيشون في هذه القصة ويتطورون ولم يكونوا بحاجة الى تدخل المؤلفه من حين الى اخر : كما ان هناك ترديدا لوصف اكثر من حالة نفسية لم تكن الضرورة الفنية هي التي تمليه . ولولا قدرة المؤلفه على احتباس انفاس القارئ لفتحت هذه انقرايات مجالات للملل كانت يقضي عنها .

يضاف الى ذلك بعض الاستطرادات ، من مثل التعليقات السياسية على الاحداث ، جاءت حشوا ، وكادت تقطع او قطعت شحنة التوثب الفني في اكثر من موضع .

ولكن ، بالرغم من هذه الملاحظات ، تبقى هذه القصة ، ان في غنى شخصياتها او في بنائها او في اسلوبها او في طرافتها احدى اجمل القصص التي كتبت مؤرخة هزيمة حزيران ومبشرة بميلاد حركة فدائية صحية متقدمة .

عايدة مطرجي ادريس

مكتبه النوري

دمشق - تجاه البريد العام

وكيلة منشورات دار الآداب وكبرى

دور النشر اللبنانية والعربية في

القطر السوري .